قصة قصيرة:

زجاج

حكمت الحاج

[. . فاكسِرْ زجاجَ هذا البيت الرِّيفيِّ الجَميلْ . .]

حينما وصلَ إلى المنزل الصغير المحاط من الأمام بحديقة يبست أشجارها وتشقَّقَتْ تربتها ونزلَ بينهم ذلكِ النزول المفاجيء مثل طيرٍ هابط في فناءِ دارٍ تراكم فيها غبار قديم وحَبٌّ فاسدٌ من طول التخزين ، لم يكنْ يحملُ معه غير حقيبةٍ صغيرةٍ زرقاء كالحة تحتوي على لفافةٍ ضخمة من الأوراق السمراء التي كانت تستعمل ذات وقت لتغليف الكتب المدرسية ، وبضعة صور فوتوغرافية متوسطة القياس مكسَّرة الزوايا والأركان من كثرة دَسِّها وإخراجها من الحقيبة التي كانت تُمَثِّل لهُ ـ فيما يبدو ـ محلَّ اهتمامٍ خاص ، من آثارِ أصابعهِ على جلدها ، من حافاتها التي تغيَّرَ لونها ، من خيوطها التي يبدو عليها أنها قد تَصَرَّمَتْ منذ وقت بعيد .

هذا ما لاحظوهُ عليه حينما انتهتْ الأمور هكذا تلك الساعة من المَساء الكابي الذي رُتِّبَتْ فيه المواعيد وصِيغَتْ على ضوئهِ الكلمات الواجب قولها . وفي الداخل كانت الأم تجلس على الأرض مُسْلِمَةً ظهرها للمقعد الخشبي حاصدةً ركبتيها بين يديها ، ترنو ، دون أن يرفَّ لها جفن ، إلى التلفزيون الذي لم يكن يقدم شيئاً لها ، بل كانت تَسرحُ بخيالها إلى لحظةٍ ترىٰ فيها أبنتها وهي تصعدُ السّلمَ المفروش بالسجاد إلى الطابق الأعلىٰ للفندق الكبير حيث غرفتها المرتَّبةْ والمُضَوَّعَةْ بعطر هو هدية من زوجها في ذكرىٰ زواجهما قبل سبعة عشر عاماً بالضبط ، حينما كان يعمل في الكويت على مكوى بخاري تابع لاحدى شركات النفط ، يومها كانت تستطيع بصوت واضح أن تخبر جاراتها أو قريباتها أن زوجها يبعث لها بأشياء غريبة لا يمكن لهُنَّ أن يعرْفنها ، أشياء تتمناها كلّ امرأة تريد أن تكون أحلى من غيرها ، ولكنها تلك المرّة ، عندما استلمت زجاجة العطر الصغيرة الغريبة الشكل لم تَفضَّ الورق الجلاتينيّ المحيط بغلاف الكارتون ولم تفكر أبداً باستعمال العطر ، فهي على يقين أن هذا النوع من العطور لم يُصنع ويُرسل إليها كي يُستعمَل ، لا ، لا يمكن ، الحجم الصغير وأناقة الغلاف والرسوم على الكارتون والشريط الأحمر الذي يلفّ خصرها ، كل هذه الأشياء لم توجد عبثاً هكذا حتى يأتي أيُّ واحدٍ ويفتحها ويعطّر جسمه النتن بمائها ولا يتبقَّى من العطر ـ بعد أيام ـ غير ذكرى لرائحة عظيمة ، لا ، لن تحاول حتى التفكير في فَتْحِه ، بل ستأخذه وتَلُفَّهُ بقطعة من قماشٍ لَمّاعٍ وستخفيهِ في دولابها الخشبي طيلة سبعة عشر عاماً ، وها هي الآن تستحضرهُ على الطاولة الأنيقة المكعبة الشكل في غرفة ابنتها في طابق اعلى من فندق كبيرٍ مزعومٍ . ثمة أيضاً أزهار حقيقية مهداة برفقة بطاقة تهنئة بمناسبة الزواج الذي طال تَرَقُّبُهُ . في هذه اللحظة كان صوت الأب هو الذي يخرق الصمت ومن ورائهِ تبدو للعيان صور العائلة بابتساماتهم المصطنعة وبربطات أعناقهم المشدودة من أجل التصوير فقط ، وبشعور النساء اللواتي لم يدَّخرْنَ جهداً في تلميعها بالدهون المستوردة ، وبأجراس ذهبية كاذبة مُدَلاَّةٍ

من رؤوس أطفال لا ينظرون مباشرة إلى عين الكاميرا، بل إلى مكان آخر بعيد، ربما هو لعبة يكسرها طفل آخر، وربما هو قطعة حلوى تجمَّعَ عليها ذباب كثير، «لا أريد أية مضاعفات، أريد أن ينتهي كل شيء بسرعة، لا وقت لدينا لهذه الـ . . . .» لكن أحداً لم يكن ليصغي إليه، إذ كان العريس المقبل منشغلاً بتصليح أغراضه التي يخرجها من الحقيبة وترتيبها بنظامٍ ما، على منضدةٍ أمامهُ، وهو الآن يعزل على جانب، لفافة صغيرة من قماش لمّاعٍ ملفوف بشريط أحمر ويضعها في خشية واضحة أمام الفتاة الجالسة على «ألقَنَفَةِ» المواجهة له، لم يكن يبتسم، ولم ينتظر أن تأخذ اللفافة القماشية أو أن تفعل أي شيء بها، بل عاد إلى ترتيب أغراضه.

نظرت الفتاة إلى أمها، وعندما لم تحصل منها على أية إشارة بشأن الهدية المطروحة أمامها، قامتْ ولبست نعلها وخَطَتْ إلى خارج الغرفة بعد أن ضربت الباب وراءها بقوة مما جعل الأب يقول: «ما هذا؟» وينظر نحو جهة الباب الذي كان ما يزال يرتجف ثم عقَّب بصوت عميق «ألعاهِرَة، ولكنْ ليكنْ، سنرى. .» وعاد إلى جريدته يقلّبها عندما دخلت وهي تضع يديها في جيوبها، نزعت نعلها وذهبت حافية ووقفت أمام التلفزيون ثم مدَّتْ يدها وأطفأتْ الجهاز وقامت بترتيب الغطاء القماشي الأصفر، مُسْدِلَةً أياه على أطراف الجهاز، واضعةً إناء الأزهار الزجاجي المملوء إلى منتصفهِ بالماء، على التلفزيون. تراجعت بضع خطوات إلى الخلف كما لو كانت تريد أن تتأكَّد من لمساتها الأخيرة كي تبدي رضاها عن عملها. في نفس الوقت كان الأب قد ترك جريدته مرة أخرى ليقول «حسناً فعلت إذْ أغلقت هذه اللَّغوة، ولكن، كم مرة قلت لك لا تضعي المزهرية على التلفزيون؟».

التفتت إليه لتُجيبَهُ لكنها أغمضت عينيها فجأة.

مَدَّتْ الأم يدها تَتَحَسَّسُ الفَرْش الأرضيّ وتلمُّ عنه عيدان ثقاب مشتعلة حتى المنتصف ومرميّة بغير أدنى اهتمام بنظافة الغرفة، وحبات رزّ مطبوخ قد يبستْ وديست بالأقدام، تشعر أن الجميع يقفون ضدّها ليدمّروها، حتى الضيوف الودعاء، يوسّخون الفَرْش ببقايا الطعام المتساقط من أفواههم القذرة، وهي تمسحها بأصابعها «من همْ حتى. . .؟».

توجَّهتْ الفتاة إلى النافذة وفتحتها على آخرها، وضعت كفّيها على المسند الاسمنتي المصبوغ ومدَّتْ رأسها حتى لامس أنفها حديداً بارداً قاسياً لا يمنع عنها الهواء لتأخذ شهيقاً عميقاً بصوت مسموع وتتراجع لتفرغ الهواء من فمها. أولتْ النافذة ظهرها وصرختْ: «أنتَ تقولَ هذا عني، غيركَ يقول أشياء أخرى».

«غيري؟ غيري مثل من؟ قولي. .».

«أووه، غيرك كثير، . . كثير. .».

وكانت ترسل نظرها إلى وجه الشاب الجالس قُبالتها، تبحث عن أثرٍ ما يكون مرسوماً على صفحة الخدّ، أو علامة ما في حَدَقةِ العين، أو رسم بادٍ في حركة الرموش، أو على لون الجلد. كانت تفكر في تاريخ ماضٍ لا تتعب أبداً من تَذكُّرِهِ، لأنها لم تكنْ تعرف كم من الأيام القادمة قد تبقّى بما يكفي ليُشبْع قابليتها على التّذكّر. هكذا ترى تاريخها بينما أبوها يتحدث ليوقف تَلبُّدَ الجو بغيوم العراك والعويل، مفتونةً بكتلةِ شمسٍ هابطةٍ تتسلَّقُ الحائط العالي الشتائيّ الذي يتغيّر لونه، بينما ذلك الفتى الذي يشبهُ عرد الكبريت يعيد ما يقوله أمامها كل مرة إذْ يلتقيها ويعبّر لها عن عواطف لكنه لم يقل مرة ماذا يريد منها أو على أية شاكلةٍ يريدها أن تكون. هو فقط لا يَملُّ من توجيه جمل المديح إليها. ورغم أنها لم تكن لتصدّق حرفاً واحداً من هذا النحيف المخبول، فإن الإدمان على اللقاء والإلحاح الغريب، بنفس القوة كل مرة، وبنفس النّبرة في مستوى الكلام، وبنفس درجة التوتر في عضلات وجههِ، جعلتها تفقد شيئاً فشيئاً مقاومةً غريزيَّة مكتَسَبَة عبر قرون طويلة من التعليم النّسائي، من الجدّات وجَدّات الجَدّات، إلى الأمهات وأمهات الأمهات. لم يكن أبداً يقول ماذا يريد، قال فقط إنه، ربّما بمحض الصدفَةْ أحاطها بذراعه بحركةٍ تجمعُ ما بين الوقاحةِ والميانة، مُمْسِكاً إياها بيدِه الأخرى، ثم يدفعها إلى غرفة أشبهُ ما تكون بهذه الغرفة التي هي فيها الآن، بنفس بابها وبنفس طلائها، بنفس ظلامها وبنفس تلك الرائحة المميزة المعروفة عن منزلهم [ملاحظات طالما سمعتها من آخرين يحاولون دائماً توجيه اللوم أو النقد إلى أمها بتعريف غيرهم برائحة المنزل وقذارته وبيوت العنكبوت المنتشرة على السقوف، وكأنهم يتهمون الأمّ بانحرافٍ ما غير واضحٍ إنما يخفي وراءَهُ حقداً على زوجها، موقف ما يحاولون جهدهم تثبيته، وربما إيصال فَحْواه إلى الزوج ثم إلى الابنة]. لكنها كانت في وضعيّة غير سوية وتفوح منها رائحة أعقاب السجائر خاصة من السرير المعدني بقوائمه العالية الذي يتوسطها

والذي يصطدم به كلّ داخل نتيجة لاتّساعه ولضعف النّور في الداخل. حاول الاعتذار بحركة من يديه وفتح فمه لينطقَ بشيء ما.. مرةً أخرى هي لا تنظر إليه بل ترى صورتها منعكسةً في المرآة المعلقة على الحائط وهي تتأرجحُ مثل بندول الساعة ترى نفسها براقةً لامعة كأنما زيتٌ مُشَبِّعٌ يطفو على بَشَرتها وعليها ضفائر طويلة مجدولة منتهية بشرائط حمراء معقودة على شكل وردة.

كل شيء الآن يبدو وكأنه يرتجف بصورة لا نهائية مثل جسدها، ينتفضُ وقد عَرَتْهُ برودة مفاجئة وقطرات عرق بارد تزحفُ حتىٰ أسفل عنقها تتجمَّع، لا تمدُّ يداً لتمسحها، بل تدعها تنحدر حتى صدرها المكشوف.

في المرآة المعلقة، كان واضحاً لعينيها الحدّ الفاصل ما بين مساحة الجلد المتعرض للشمس اليومية، بسُمْرَتِه البسيطة، وبين ما كان يستره الثوب من لحمٍ يقترب لونه من البياض يعلوه زغب أصفر بلا وضوح، بينما صوت أبيها يقول: «... ذاك لأنك لست مثلهم، أنت شيءٌ مختلف، وأنا لا أقصد فقط هؤلاء المحيطينَ بنا، في هذا المكان الحقير، إنما أعني أيضاً كل الذين يرتبّون أمورهم وكأنهم سادة، سادة في حياتهم وسادة في بيوتهم وسادة في مماتهم «تصوّر، هم واثقون من مستقبلهم، المغفلون» ثم يكمل بعد لحظة وهو يراقب الشاب يصغي إليه «لا.. أنت لست من هؤلاء». وكان الشاب وهو منتبه إلى الأب قد قدَّم سيجارة إليه فاعتذر هذا عن أخذها لأنه الآن لا يدخن كثيراً بعدما أصيب بنَزْلَة برْد أعقبها سعال شديد، فأشعل هو سيجارته ورمى بعود الثقاب إلى الأرض ثم تذكّر شيئاً فانحنى والتقطه وأخذ يبحث عن منفضةٍ قريبةٍ «هناك.. على مسند النافذة..». اعتذر لأنه قاطع الأب، وعاد إلى مكانه وهو يرجوه أن يكمِلَ كلامَهُ، ويعترف أنه لم يكن يتصور أبداً أن يعود هذا إلى حديثه الذي قُطِع بهذا الشكل غير المقصود. على الأقل أن ينسى أين انتهى هذا إذا لم يكن قد حَضَّر احتجاجاً واضحاً وتعليماً بسيطاً ولكن ضرورياً لرجل سينتمي يوماً ما إلىٰ عائلتِهِ. وأمام دهشته كان يكمل «من أجل الحقيقة فقط، الحقيقة، ها، أقول لك: إننا لسنا من هنا، نحن بقايا عائلة أصيلة كانت وقتاً ما شامخة، لامعة، قوية، مثل الكريستال النقي، لكن، الزمن، آه... الزمن... كسّرها وهشّمها ورماها مثل أيّ زجاج يخاف من الرمال، ضعيفٌ وضائع، حتى لو سألت عن جذورنا، فروعنا، لمعاننا..»

وكان قد رفع ذراعيه في الهواء كأنه يجيب على التساؤل الحرج بحركة يائسة حزينة مفهومة على أنها أيذانٌ بانتهاء كل شيء قبل هذا الوقت بكثير، أما ما يظهر الآن ويرى فليس إلاّ أشباحاً موهومة وشعاعات منكسرة لا لون لها «فأقولُ لك بكل صراحة، لا شيء... لا شيء» وأنزل ذراعيه على جانبي الكرسي ودفع برأسه إلى الخف مغمضاً عينيه غيرَ منتظرٍ لمشاهدة أيّ تعبير يبدرُ من الشابِّ أو ردة فعل صغيرة، أو أن يلمَسَ شعوراً بالمشاكرة أو حتى علامة اقتناع. وكان يبدو أنه قد نام فعلاً إذ بدأ شَخيره المعدني يتصاعد كالدخان، ببطءٍ، مُنْذراً بانتهاء الحكاية ووصول الخاتمة إلى الطَرَفِ الآخر للغرفة حينَ انقضَّت الفتاةُ على لفافة القماش الموضوعة على الطاولة وجعلت أمها تنتبه من أحلامها لترى ابنتها وهي تحلّ شريطاً أحمر بأصابع مستعجلة وترميه في الهواء ليسقط ببطء على الأرض، وهي تمسكُ بطرف القماش وتجعله ينبسط إلى آخره فتسقط منه زجاجة عطر صغيرة شفّافة ويحدث سقوطها إلى الأرض صوتاً يفتح على أثره الأب عيناً واحدةً ويشاهد الزجاجة وحيدة على الأرض متروكة تنتظر أن يبادر واحد لالتقاطها، وظلَّ يسأل نفسهُ هل سيبادر أحد لالتقاطها وهل سيرجع إلى إغفاءَتِهِ أم أن الأم ستطلق صرختها قبل أن تنهض بتثاقل وتغادر الغرفة من غير أن تلبس نعلها، هل سيأمُر هذين الباقيين بالخروج فوراً ليرتكاه بعد أن يطفئا النور ويُسْدِلا السّتائر، إنه الآن غير مُستعدٍّ أبداً لأن يستمع حتى إلى حفيف شجرة. أعوام وأعوام وأعوام طويلة مضَتْ ولم يشعر خلالها بمثل هذه الرغبة في البقاء وحيداً داخل غرفة تشبه مدخنة، وفي الاستسلام للنوم بكل طواعية على كرسيّ خشبيّ لم يعد العالم بالنسبة إليه يشكّل غير فتحةِ شباك صغيرة مفتوحٍ على حديقة ظليلة. وها هو الآن يحاول أن يطلَّ من هذا الشباك على تلك الحديقة السحرية فهل سيأتيه صوت زوجته من الغرف الأخرى ناعياً باكياً معولاً شيطانياً كأنه بوق نهاية العالم، ويقطع عليه طريق انثيال الصور التي تمرّ أمامه سراعاً، أم أن الأبنةَ ستركض خارج الغرفة إلى حيث العويل وتترك الباب وراءَها مفتوحاً تدخل منه ريح الشّتاء لتُطوِّحَ بدَرْفَةِ شبّاكه الصغير؟

هل حقاً سيحاول أن يستعيد وضعه القديم ويغمض جفنيه قائلاً لهذا النحيف الأجوف الذي يقف وسط الغرفة دون أن يفعل شيئاً غير التحديق فيه ونَفْث الدخان نحو السقف المرقّع ببيوت العنكبوت «لا شيء... ألَمْ أقُلْ لكَ..؟».

العراق